قال احد قضاة الولايات المتحدة في خطاب ارسله لصديقه العلامة الاستاذ تيلمان ما يأتي :

خرجت مع بعض الاصحاب للصيد ولما بلغنا الضاحية سمعنا رنين اجراس حية فأردت ان اختبر بنفسي تأثير ورق شجرة الدردار على الحية فمهدت الى اصحابي بمراقبتها واسرعت الى شجرة دردار وقطعت منها غصناً يبلغ طوله ثلاثة امتار وقطعت كذلك عوداً من قصب السكر وعدت الى الحية ووقفت امامها وجهاً لوجه فلما رأتني رفعت رأسها وحركت ذيلها بغضب وقدحت عيناها شرراً مستطيرا ورنت بأجراسها معلنة استعدادها للهجوم علي فسارعت ولمست جسمها بغصن الدردار بحيث غطت اوراقه جسمها وسرعان ما اصابتها نوبة عصبية تشنجت على أثرها عروقها والقت رأسها على الأرض وجعلت تضطرب اضطراباً عنيفاً ثم استلقت على ظهرها بدون حراك فسحبت الغصن ووضعت مكانه على جسمها عود القصب فانتفضت بسرعة السهم وجعلت تعض اوراقه ونشطت للهجوم فأرجعته ووضعت ثانية غصن الدردار على جسمها فتراخت اعضاؤها وحاولت ادخال رأسها في الرمل لتجد لها طريقاً للهرب منا فأثر هذا المشهد بنفوسنا وآثرنا من باب المروءة ترك الحية وشأنها فتركناها وسرنا في طريقنا

بين نفسين

لست برام في هذه الكلمة الى أن اصور نفسين بين جنبين ، وان أفاضل بينهما وانع في تشريحهما وتحليلهما فقد بدر الى الأذهان الكثير من الوان مثل هذه النفوس

أجل لست بمحاول هذا ولكنني نازع الى تحليل نفس واحدة بين جنب واحد ، ولكنها ذات لونين ، وهي تفيء الى ظلين بينما هي تمشي بين جنب خرب ، وبلقع يباب .

بالأمس كانت نفساً زكية متواضعة ذات لون يعروه الخجل، فكانت في تواضعها رفيعة في عزة واباء، محببة الى ما عداها من النفوس كأنها قد دبت وحبت في مكان ينبت العز سريّ بكرامته وصفاء حوضه وطهارة اذياله.

كان هذا شأن تلك النفس الكريمة في مظهرها العزيزة في ذاتها فكان لصاحبها شأن بين اخوانه وذويه وعشيرته التي تأويه وهكذا يجعل التواضع من الانسان عزيزاً وان كان من ذوي الخصاصة، وانك لتجدن من بين المعدمين من هو جليل القدر على رقة حاله كما تصادف بين عيون الناس ذوي المظاهر الكاذبة من تضم جنوبهم نفوساً يعاف ادنى الحيوان ان تضرب بين جنبيه فلا يعفيه مظهره من ان يكون بين الناس زرياً ولا تشفع له وجاهته ولا يغنيه ماله وما كسب عن ان يصيب حقه من الاحترام الحقيقي البريء

أجل. لقد كان ذلك الانسان المتواضع عزيزاً في امسه، ولقد بلوناه فاذا هو خير الناس اعمالا، ولكنه بين عشية وضحاها استحال الى غير ذلك الانسان وخرج على لداته في ثوب غير ثوبه ولون غير لونه ونفس غير نفسه. ظهر لأترابه نكرة وكان بينهم معرفة، وتنكر لهم وانكرهم وشاح عنهم بوجه سوده من لون نفسه الجديدة الذي حسبه هو لوناً زاهياً مبهجاً، ولو خاله كذلك فليس هو الا من صناعة العطار تجمل به العجوز وجهها فلا يلبث ان يتصبب منها الجبين خجلا حتى يذهب بذلك الطلاء ويكشف في ذلك الوجه عن بؤر وحفر واخاديد وتجعيد فيستعيذ الناظر اليها من هذا الوجه المتخرب، وقد يكون مثل هذا الانسان مثل البغي تتعمل الوفاء وتتقصر قلبها على الاخلاص فلا تني حتى تهب عاصفة من الخبث تذهب بطلاء ذلك القلب فيبدو للانسان كخلايا النحل لكل واحد فيه نصيب

كذلك شأن هذا الانسان في دوره الثاني ولونه الباهت، كان حديثه من قبل، وهو في تواضعه نغما رقيقاً له أثره في القلوب، ولما ان ظهر بالنفس الخبيثة صار ذلك

الحديث منكراً يزعج السمع ويفزع القلب وهو عند سامعيه افظع من عواء الذئب والكلب .

ولك ان تسأل كيف كان هذا التحول الغريب بين امس واليوم ، بل بين طرفة عين ورجع نفس ؟

نعم هذا موضع العجب من هذا الانسان في هذا التحول القريب ، على انك ادركت السر في ذلك وكشفت عن قلب هذا الانسان برزت امامك الحقيقة فزال ما اعتورك من دهشة وعجب

ولا محالة في ان استكناه هذا السر غير عصي على اللبق الأريب بعد ان صورنا له ذلكم الانسان في حاليه واظهرناه عليه في برديه وكشفنا له عن لونيه . ذلك انه كان بالأمس متواضعاً ابياً فغاز بعطف واخاء يوم ان كان رقيق الحال لطيف المعشر حلو الحديث ، يوم ان اصطلحت عليه نكبات الأيام وانتظمت قلبه الأحداث النكراء فكان يلقى من صحبه عطفاً ويجد منهم دروعاً يتقي بها الشدائد ويداً موصولة ، ولكن قدر ان بسمت له الايام بعد عبوس بسمة هينة في شيء من الحلاوة ساغ مذاقها في فمه فوقع في روعه انها البسمة الدائمة وجاز في وهمه ان الزمان أصبح له عبداً وان الايام لن تقف من بعد في وجهه سداً فكفر بالآلاء من أولوه من لدنهم رحمة الهمهم الله اياها من واسع رحمته وانكر ما تقدم لهم من فضل وقد كان يرطب لسانه بالثناء عليهم بعد كان يخجله التواضع في ذل المسألة

هذه صورة نفسين في جوف انسان واحد وكم يرى المرء في رقعة الحياة مثل هذا الانسان ، والحياة ان هي الا مجموعة صور وعبر ودروس قيمة ، ولو ان هذا الانسان نظر الى هذه الرقعة نظرة صادقة ، لألفى صورا عدة هو طبعة منها ، كانوا مثله حذوك النعل بالنعل فلم يلبثوا الا قليلا حتى اصابتهم الصدمة وعادت الأيام فعثرت بهم فاستحالت تلك الابتسامة دموعاً ، والدموع هي الحزن السائل كما استحالت تلك الحلاوة مرارة دونها الصاب والعلقم وعاد يلتمس من صحبه يداً فلم يجد من بينهم من لم يذكر له النفس الخبيثة وهكذا صار من الأخسرين اعمالا . وتلك عاقبة الماكرين

محمود عصمت